اللهب والألبوم القديم

قصة بقلم عدنان الرمياوي

أم صالح بائعة النعناع الاخضر :

عندما كان موظفو وكالة الغوث يشربون القهوة تحت شجرة الخروب الكبيرة ، كان عمالهم منهمكين باعداد الخيمة الكبيرة ، بينما كانت العربات الزرقاء تتوافد وعليها عمال ابيض شعرهم من تناثر الطحين وتطايره . كان اليوم يوم توزيع « المؤن » .

كان جارنا ينخز حماره العنيد ليتحرك ولكن الحمار كان يهز اذنيه بالرفض . تم نصب الخيمة . اخذ موظفو الوكالة بالصراخ علينا لننتظم في صفوف وعلا صوتنا من جهة اخرى وعمت (المزاحرة والمدافشة) . وقفت امامي في الصف الطويل ، سميرة ذات الشعر الافريقي الاجعد ، والشفتين الغليظتين، تلهيت بمداعبتها من الخلف . نظرت نحوي غاضبة وهي تهمس :

ـ سأريك ساقول لوالدي .

قلت لها : سانتظرك مساء اليوم خلف الجبل وساعطيك غدا علبة سمنة .

سكتت وادارت وجهها عني . حين نودي عليّ لاستلام المؤونة كانت هي تفتح كيسها لوزع الطحين . وقفت الى جانبها . قالت لي : بعلبتين لا مانع .

حملت كيس الطحين على ظهري . كانت ام صالح بائعة النعناع الاخضر تسير خلفي . لاحظت انها تسرع الخطا تجاهي حاذتني ومست علي بالخير . كانت الشمس الحارقة تتوسط السماء . رددت عليها وسرنا معا . علمت انها مشتاقة لابي صالح الذي سافر للكويت منذ مدة طويلة ولم يرسل لها أية رسالة .

قرصتني في ذراعي عندما اتجهت الى طريق فرعي نحو خيمتي، وواصلت هي طريقها الى خيمتها . سالت اكرم ـ صديقي الذي يكبرني بعدة سنوات ـ ان ينصحني ما اذا كان من الصواب ان اغزو خيمة ام صالح تلك الليلة . قال لي :

ـ لا ، هذه امرأة ويمكن ان تحمل وتسبب لك مشاكل .تكفيك سميرة .

كان اكرم مستشاري في شؤون الشباب . ليلتها لم انم وحين نام أهلي خرجت واتجهت الى خيمة ام صالح . رفعت طرف الخيمة بخفة وتسللت .

صرخت المرأة مذعورة ودفعت رجلا كان يغفو على صدرها . قفز اكرم كالملسوع وخرج يجري وقد نسي بنطاله .

في اليوم التالي قابلتني سميرة في طريقها الى العين لتملأ جرتها . نظرت نحوي وبصقت على الارض . ضحكت في سري وانا أتذكر كم كانت ام صالح دافئة .

أبو صالح وحسن الحمد وعبدالله السمان :

اخذ جارنا في توسيع دكانه شيئا فشيئا .

وفق ابنه في الكويت وصار يرسل لوالده مبلغا من المال لا بأس به . أغلقت الدكاكين الصغيرة ابوابها . جلس أبو صالح وحسن الحمد وعبد الله السمان يلعنون حظوظهم السوداء ويستنزلون اللعنات على رأس جارنا الذي أكل دكانه دكاكينهم . لا بد من ايجاد حل . العتالون يملأون رام الله والمقاهي لم تعد تدر شيئا بعد ان اصبحت اكثر من الهم على القلب وتوزع الرواد . لا مجال هنا !

لو كان صالح حيا لما تبهدلت هذه البهدلة ، قالها ابو صالح وهو يتنهد ، اجابه حسن : الله يرحمه ، وبصراحة كان عليه ان يحمل سلاحا قبل أن يفكر في سرقة البيوت ، لو كان فعل ذلك لتمكن هو من قتل صاحب المنزل الثري ، ولكن ما باليد حيلة . اما عبدالله فقد ظل صامتا معظم الوقت واخيرا قال : يجب ان نسافر للكويت.

رد عليه حسن : ولكن كيف سنصل الى هنالك بدون « فيزا ».

اجاب عبدالله : الكل يذهب هذه الايام بدون « فيزا » . رد حسن: وكيف سيفعل اولاد حسن بعدي . اسكته عبدالله وهو يقول : كلنا وراءنا أولاد . تنهد ابو صالح هامسا : الا انا .

في الطريق بين البصرة والكويت عانى الثلاثة الكثير من الحر والعطش ، لكن الدليل ظل يطمئنهم باقتراب النهاية .في الليلة الاولى مشوا عشرين كيلو مترا . وحين بزغت الشمس دفنوا رؤوسهم تحت شجيرات الشوك واخلدوا الى النوم . كانوا يخافون من دوريات الحدود فيسيرون ليلا ويختبئون نهارا . وعندما غربت شمس اليوم الاول نهضوا يواصلون السير .

لم يجدوا الدليل ولم يجدوا معهم فلسا واحدا . كانوا قد اودعوها لدى الدليل . اخذ عبدالله يلطم : والله ضعنا يارجال !

بعد ثلاثة اشهر ، عندما جاء احد أبناء المخيم من الكويت علمنا ان حسن قد مات في الطريق .

ساله منير ما اذا كانت جثة ابيه قد دفنت في الكويت او العراق . رد بان الجثة ظلت في الصحراء وانهم لم يتمكنوا من حملها من مكانها .

قامت المناحة في بيت حسن الحمد وبكى منير وعثمان ومزقت ام منير ثوبها الاسود المطرز من الصدر حتى الذيل .

وصلت رسالة من عبدالله السمان روى فيها كيف مات حسن من الظما وكيف أخذ يرفس الارض برجليه ويحفر التراب كالديك الذبيح.

أما هو وابو صالح فقد تمكنا من العودة للبصرة بمعجزة الصبر والمقاومة ثم كتبا لاحد معارفهما في الكويت فارسل لهما بعض المال الذي مكنهما من السفر على مركب من مراكب التهريب حتى وصلا شواطىء الكويت بعد اختفاء ايام بين اكياس التمر .

مدرسة المخيم :

فرحنا كثيرا عندما علمنا بأن الوكالة ستستبدل الخيمة الكبيرة التي كنا نقرأ فيها بغرفتي اسمنت . حين اكتمل البناء وطلي باللون الابيض وعلقت على الباب يافطة تحمل اسم المدرسة ، كدنا نرقص من الفرح .

دخل علينا ناظر المدرسة ذات يوم ومعه رجل طويل اشقر الشعر ازرق العينين . كان الرجل الطويل يبتسم وهو يحيينا بلكنة عربية مكسرة .

قال الناظر :هذا هو مستر جاكسون المفتش لوكالة الغوث،وقد جاء ليطمئن عليكم ، فان كانت لكم طلبات فتقدموا بها .

بعد يومين علمنا أن احمد عبدالله طرد من المدرسة . لقيته في الشارع واستفسرت منه عن سبب طرده مع انه من اذكى الطلبة، فأخبرني انه ذهب لمقابلة الناظر بعد سفر المفتش وانه اخبر الناظر بانه راى هذا المفتش يوم احتلت قريتهم بقضاء يافا وان هذا المفتش نفسه كان ـ حتى برتبة ملازم ـ وانه هو الذي اطلق الرصاص على راسي بقر فقتلهما . قال احمد : ولقد اكدت للناظر بانني متاكد جيدا

من هذا ، فما كان من الناظر الا ان صفعني كفين على وجهي وامر بطردي من المدرسة حالا وهو يصرخ : ولد خلاق مشاكل .. كلامك غير معقول وهو افتراء على موظف كبير في الوكالة .. اخرج ولا تعد للمدرسة والا سلمتك للبوليس . واكمل احمد : ولكنني لن اكون من ظهر ابي ان لم افضح غرض هذا الناظر ، سأريه .

احببت الكثير من طالبات مدرسة البنات . لكنني لن انسى ليلى ، فقد كنت اسرق لها الطباشير الملونة وتسرق لي هي من دكان ابيها اقراص السكر . وحين كنت اذهب لاعطيها دروسا فيالرياضيات- فقد كنت أكبرها بصفين - كنت اتواعد معها في وقت للقاء خارج المخيم ، حتى امسكنا ابوها ذات يوم وانا اقبلها فاذاقني علقة لن انساها ، ولم اقترب من بيتهم بعدها .

اما احمد عبدالله فقد ارسل الى السجن ليقضي فيه عشر سنوات بعد أن اغتصب ابنة الناظر .

رقصة منير بن حسن الحمد :

كان جسده مسجى داخل سيارة الجيب ورفاقه من ذويالبدلات الرقطاء الموهة حوله . بعضهم جالس على مقعد السيارة والبعضالاخر في مؤخرتها وامام الجيب وخلفه سيارات كثيرة تحمل اللافتات وتنطلق من سماعاتها الاناشيد افواها تصرخ بالهتاف وعيون تتفجر بالغيظ والهتافات . الام تزغرد وتحبس دموعها لوسائد الليل . على جانبي الشارع كان هنالك الالوف والبعض الاخر صامت أو يقرأ الفاتحة .

سارت جنازة الفدائي نحو المقبرة . أهال زملاؤه التراب عليه والقسم يرج قلوبهم ان لا يتراجعوا عن عهد الاستشهاد او التحرير.

كان احمد عبدالله السمان يقف الى جانبي وقد حمل رشاشه والدموع متحجرة في عينيه . عدنا انا واحمد الى البيت معا قال لي : اتذكر رقصة منير الاسبوع الماضي . لم تبق عذراء لم تتلصلص عليه من شباكها .

تذكرت الاسبوع الماضي وتلك الحفلة الشعبية التي اقيمتلعرس عثمان - اخي منير - . يومها - او بالاصح - ليلتها ، وصل منير قادما من احدى القواعد في الاغوار ، وبعد ان دخل الدار وقبل يدي امه خرج الى الساحة وانتظم مع جماعة راقصي الدبكة وكان يمسك بيده منديلا ابيض يهزه ويلوح به . وعندما تعب كل الشباب قام هو وحده واخذ يرقص برشاقة ويضرب الارض بكعبيه بصوتعنيفمنتظم، ثم جلس والعرق يتصبب على جبينه ويلمع على شعره الاسود . همس في اذني : اتذكر ايام المخيم ، وضحكنا بشدة .

قبل طلوع الفجر ودعنا منير وعاد الى قاعدته . وحين كنا نغادر ساحة العرس كان يسير الى جانبي جارنا الكاتب بوزارة الصحة وجارنا الثاني الدلال بسوق الجمعة . كانا يمصمصان شفاهها متأسفين على الشاب الذي خصره اكثر مما يجب .

على الجدران واعمدة الكهرباء في الشوارع كنا ننتظر البيان الذي سيقدم استشهاد منير ، وفي اليوم الرابع للجنازة رأينا البيان. كانت صورة منيرة تتوسط مجموعة من صور زملائه من ذوي البدلات الرقطاء . كان البيان يتحدث عن محاولات العبور التي قام بها منير. أما في المعركة الاخيرة التي استشهد فيها فقد ظل يحمي زملاءه في عملية انسحاب اضطراري حتى مزق جسده رصاص الاعداء وهو يصرخ : لن انسحب حتى اجد عظام ابي واكسوها باللحم واحملها الى يافا .

كنت أقرأ البيان وفي ذهني صورة ام منير تزغرد خلفالجنازة. وايضا صورة جارنا الكاتب بوزارة الصحة وجارنا الدلال بسوق الجمعة .

اللحظة :

اقترب الموعد . لم تبق سوى دقائق . كان احمد عبدالله الى جانبي بعينين كعيني الصقر . كان كل شيء على ما يرام وكنا على اتم استعداد . وفي المرة السابقة تأخروا ما يزيد عن نصف ساعة لكن الرفاق احتفظوا بأعصابهم . يومها عدت انا واحمد فقط وقتل الباقي . لا يهم ، كل شيء له ثمن ، قال لي احمد يومها . حين تركت الجامعة ولبست البدلة الرقطاء بكت امي بصمت ولم تعترض. اما خالتي فقالت لي : هل تتبع احمد الولد الصايع ام هل تريد ان تموت كمنير اليتيم ؟ وددت يومها لو لم تكن خالتي هي المتكلمة اما سميرة ذات الشعر الافريقي فقد اقسمت ان تعلق صورتي فيحجرتها حتى ولو قتلها والدها بسبب ذلك .

شعرت يوم اخذني احمد الى قائد الموقع لانتظم . انني طويل عريض . ومن يومها بدأت افهم اشعار ناظم حكمت وعبدالرحيممحمود. لم تبق على الموعد سوى دقيقتين . احمد يبتسم . يسألني انكنت اعلم اين ذهب الناظر بابنته . أجيبه انهم سافروا الى احد المخيمات قرب دمشق وانها قد وضعت ولدا . ينتفض احمد وتملأ وجهه ابتسامة عريضة وهو يهمس : صحيح ؟! لا بد انه الان فتى جميل مثل امه .. كيف لم أسأل عنها من قبل ؟

انتباه . ياشباب بقيت دقيقة واحدة . استعدوا . مدافعالبازوكا اولا ثم الكلاشنكوف . الرموش تصلبت فهي لا ترف . ربت على قنابلي . لولا الحياء كنت قبلتها . هنا موقعي ، لا في اية نقطة اخرى على خطوط العرض .

خيط طويل من الضوء اخذ يمتد بين الاشجارفيقاع الوادي ، كبر الضوء عندما استدار الى طريق مستقيم . لا تطلقوا حتى اصدر الاوامر . حاضر . انتظروا حتى نقترب الى اقرب نقطة . حاضر. تذكروا التعليمات بدقة .حاضر.اخذ القائد المنظار :مدرعة .. ما هذا ؟ ان خلفها عددا كبيرا منالمدرعات .. اثنتان . ثلاثة ، اربع ، خمس مدرعات ، ما هذا ؟ اننا عشرة رجال ، وقد علمنا ان مدرعتيناثنتين فقط تمران من هنا ! ما رأيكم يا شباب ؟ لن نتراجع حتى لو كانت ماء ، انطلق بهذا قائلا : احمد عبدالله . اما أبو فارس فقال : ستقضي الالغام المبثوثة على بعضها وسنتكفل نحن بالباقي .. القنابل. افتح مسامير الامان .

اقتربت المدرعة الاولى . انفجرت تحتها الالغام فالتهبت كقطعة شمع . اطلقوا انهالت القذائف والقنابل . الافق يشتعل . قنابلنا تفجر الارض حول العدو . قنابل العدو تنفجر من حولنا الامتار بيننا تتحول الى خيط جهنمي .. فجأة والليل فوق رؤوسنا يتحول الى نهار .

انها المساعدات الجوية للعدو .. لعن الله هذه الطائرات القذرة وقنابلها الكشافة . اصب ابو فارس في رأسه عندما يقف على قدميه ليقذف احدى القنابل اليدوية . الدم يغطي وجه القائد . احمد يصرخ الله اكبر ويركض مندفعا بسلاحه الابيض نحو المدرعات بعد ان نفدت ذخيرته . يركض يمينا وشمالا ليتجنب الرصاص.رصاص العدو يخترقه من كل جانب . يصيح : وصيتكم فلسطين وصيتكم ولدي .

كتفي تلتهب . اسقط على صخرة حادة كالسكين . لن استسلم حتى يتحول المخيم الى فردوس طرد منه ابليس . اصوات الرصاص تخف تدريجيا . زملائي حولي بين قتيل وجريح ، أستطيع ان ارى العدو ينقل جرحاه وقتلاه . كتفي تزداد التهابا كان بها الف سفود من النار .. الظلمة تزداد امام عيني .. الله اكبر .. امي تحملني على كتفها وتركض بي وبالجنين الذي في بطنها .. اخته الناظر انضما وسميرة وابو صالح واحمد وحسنالحمد ومنير الحسن .. كلهم يركضون ويزغردون ويغنون .. الله ما أجمل الطريق الى يافا .. انه تماما كما كانت امي تصفه لنا وهي تحدثنا عن مدينتها عروس البحر الابيض .

عدنان الريماوي
جامعة دمشق - قسم اللغة الانجليزية